

أهمية النظر في الأبعاد المجالية لتحقيق تنمية محلية متبصرة (منطقة

دكالة نموذجاً)

مقاربة سوسيو-أنثربولوجية-

إعداد الطالب محمد شهيد

(السنة الثانية، ماستر الديناميات الحضرية والتغير الاجتماعي، كلية الآداب والعلوم

الإنسانية- جامعة شعيب الدكالي، الجديدة)

التوصيف الإشكالي

حظي إطلاق الراحل بول باسكون مفهوم/أطروحة المجتمع المركب سنة 1967 بعناية أكاديمية منقطعة النظير مقارنة مع أطروحات متضمنة في أعمال أخرى. وعلى الرغم من أهمية هذه العناية فقد طرح مشكلة في الممارسة السوسيولوجية والأنثربولوجية في المغرب تتلخص في غياب المشكلة العلمية (أي التفكير الاستيمولوجي في هذين الحقلين) في عديد من الأعمال التي توصلت به توصيفا للمجتمع المغربي، ونصنفها إلى قسمين أساسيين. قسم أول؛ يجعل توصيف المجتمع المركب كخلفية له أي كمقولة منجزة في التاريخ ومستنفدة المضامين. وقسم ثان؛ يجعل هذا التوصيف نصب عينيه أي كنقطة نهاية مرجوة، يكفيه فقط جمع بعض الشواهد الأميركية المتناثرة هنا وهناك للاستدلال عليه.

إن ما نصبو إليه بعيد كل البعد عن عمل تلك الطريقتين. وليس كذلك جدال في راهينية أو جدة تلك المقولة، وإنما نهدف للبحث عن توصيف لوجه محدد وممكن من باقي الأوجه المتعددة للمجتمع المغربي. لذلك فمنهجيتنا رياضية صرفة تبتدأ بقبول هذا التوصيف أولاً، لنعمل بعد ذلك على بالاستدلال على تعددية أوجه المجتمع المغربي سواء من خلال اتصاله بعوالم اليوم أو من خلال أهمية دينامية المجالات المحلية. عن طريقة البرهنة بالخلف. وهو الأمر الذي يتموقع لنا داخل سؤال عام مؤسس: هل واقع الخصوصية المحلية يعني بأننا خارج اللعبة العالمية اجتماعياً وثقافياً على وجه التحديد؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب. فلماذا فشلت مشاريع تنموية وطنية طموحة سابقة إذن؟ وإذا كان الجواب بالنفي. فهذا يفتح أمامنا

أفقا غنيا ومفيدا للتأمل في مظاهر التفتت الاجتماعي والثقافي وفي الأبعاد الهوياتية الجديدة لإنسان الألفية الثالثة. فإذا كان هذا يحدث على مستويات كونية منشبكة ومتصلة بطريقة تكثف معها المعاني وتحيد فيها المسافة والزمان، فإنه ذلك لا ينال من أهمية الأبعاد المجالية المحلية والتي حقا استفادت من هذه الاستطالة العالمية-المعولمة لإبراز محلياتها. لنقف هنا مع سؤال آخر مواز لهذه السيرورات: ما هو المجتمع اليوم؟ والذي يبدو أنه يتجه ليصير مقولة ميتافيزيقية، لينزع الاجتماعي للاقتران أكثر بالمجالات التي تتأرجح بين ثلاثة مستويات متغايرة (ماكرو-متوسطة-ميكرو) في وضعيات سياقية متعددة ومختلفة. ليكون اليوم مطلب القبض على الاجتماعي والثقافي مشروطا ومرهونا بالبعدين المجالي والزمني. وقياسا عليه؛ وكما هو غني عن البيان أن كل مشروع تنموي متبصر يلزمه النظر في خلفياته الاجتماعية والثقافية قبل الفعل والتدخل. وحقيقة فهذه الخلفية عندنا غير مفصولة عن أبعاد مجالية متعددة المستويات. لذلك لا بد من إبرازها، إبراز أشكالها ودينامياتها. وهو المطلب الذي نستدعي لأجله عملا ميدانيا محليا من خلال مجال ترابيات منطقة دكالة. الشيء الذي سنأطره بالأسئلة التالية الموجهة:

- بأي معنى تصبح التنمية المحلية، تنمية شمولية وشاملة للمجتمع؟
- كيف أسهم التشكل المجالي لمنطقة دكالة في بروز أشكال اجتماعية وحضرية جديدة؟
- كيف يمكن لنا تأهيل الإمكانيات الهائلة والمتعددة لترابيات منطقة لتحقيق تنمية لمجال واعد؟

طبيعة المقاربة

نقدم في هذا الباب خطوتين أساسيتين و مترابطتين، الأولى كدليل عمل لهذه الدراسة ولدراسات أخرى ممكنة. والثانية مخارج توصيات وحلول لعمل ميداني من خلال مجال منطقة دكالة.

1. مقارنة ثلاثية الأبعاد

إن النظر المزدوج (محليا وعالميا) في المجال المحلي، سيوفر لنا مقارنة عمل ثلاثية الأبعاد على الشكل الآتي:

أولا على المستوى المحلي ذاته، الذي سينظر له كنقطة بداية وليس كنهاية للتدفق من المركز. فالتنمية بهذا المعنى ستكون مباشرة وملموسة ويسهل الانخراط فيها، الشيء الذي سيوفر إشراكا جيدا لكل المتدخلين الرسميين وغير الرسميين. وهو المعطى الذي يستجيب بشكل عملي وفعال مع مطلب الجهوية المتقدمة والموسعة؛

ثانيا **تخدم الكل**، فما دامت حقيقة المجالات اليوم منشبكة ومتراطة العقد فإنه يسهل التدفق بين المجالات، وهو المعطى الذي سيسهم بشكل مباشر في تفتيت العلاقة الكلاسيكية بين المركز والهامش. وبهذا تكون المزية مزدوجة أولا تحقيق استقلالية المجال المتعددة المستويات، ثم تحقيق مبدأ الشمولية من خلال ذلك الترابط المحقق بين المجالات. فالكل (المجموع) سيتفيد من أجزاء (مجال) مستقلة، متنافسة وغير متصارعة. إذ يكفي أن تنبث شجرة بهذا المجال لتتدلى قطوفها على مجال آخر؛

ثالثا **مندمجة مع السياق العالمي**، فما دمنا لسنا خارج اللعبة العالمية ومتصلين أكثر بالكونيات، فإن هذا النموذج سيوفر لنا اتصالا متبصر. أي تحديد مضمون ومدى التدفق القادم حسب حاجيات المجال المحلي، كما سيفتح لهذه المحليات أفقا عالميا للتعبير عن مكوناتها الثقافية والسياحية وخاصة عن موطئ قدم في سوق المتنافسين.

وبهذا ستمكننا هذه المقاربة الثلاثة الأبعاد من إقرار نموذج تنموي صاعد-أفقي، أي أنه ينطلق من الجزء الدقيق الميكرو ليأخذ في الانشباك نحو المستويات المتوسطة إلى الأعلى/ الماكرو، فصيعته التلقائية والمرنة ضمانة كبيرة لنجاحه ونجاعته ولاستدامته، وذلك لأنه لا يتطلب الكثير ما دام ينطلق من القريب المفهوم عند الفرد المحلي، وما دام هو الساهر عليه والمستفيد المباشر الأول منه فهو من سيكون المدافع عنه والمتمسك به. لنصل لمجال مؤسنا ضامنا لحقوق إنسان القرن 21 والتي من أهمها الحق في المجال والمدينة، ومحاربة التفاوتات المجالية وتحقيق الحق في الحركة.